المطرُ والغيثُ في القرآنِ والحديثِ
دراسةٌ بلاغيّةٌ أسلوبيّةٌ

الدكتور خليل محمّد أيّوب[*]

ملخّصُ البحثِ ◄ يتناولُ هذا البحثُ بالدّراسة المُعَمَّقةِ استعمالَ لفظي المطر والغيثِ في القرآن والحديث مُبتغِيَاً من ذلك الكشفَ عن الخصائص البلاغيّة والأسلوبيّةِ لكلا الاستعمالين: القرآنيّ والنّبويّ.

ولبلوغِ هذا الهدفِ ابتدأ البحث بتمهيدٍ عرَضَ لِمَا ذكرتْه كتبُ اللغةِ وغيرِها من فروقٍ دِلاليّةٍ بين لفظي المطر والغيث، وذلك لتعيين ما هو لغويّ، وفصلِه عمّا هو خاصٌّ بالقرآن الكريم، ثمّ انتقل البحثُ إلى النّظر في استعمال القرآن والحديث لهذين اللفظين بُغيةَ الوقوف على أوجه الالتقاء والافتراف في التّعبير عنهما، وذلك من خلال استقراء مادّتهما، وتأمُّل لغتهما، والسّياقِ الذي جريا فيه، وانتهى البحث بخاتمةٍ ضُمِّنتْ أبرزَ النتائج التي توصلت إليها الدّراسةُ.

الكلماتُ المفتاحيّةُ: القرآن- الحديث - المطر - الغيث - البلاغة - الدلالة- المطابقة - التّناسب

Özet ▸ Bu akademik/bilimsel araştırma, Kur'an ve Sünnet'te yağmur manasına gelen iki kelime olan "ğays" ve "matar" kelimelerinin belağat ve üslup açısından kullanılışını açıklamak üzere hazırlanmıştır.

Bu farklılıkların tespiti için öncelikle lügat kitaplarına ve iki kelime arasındaki farklılıklara değinen diğer kitaplara müracaat edilmiştir. Lügat manasının

[*] Khaleel Mohammad AYOUBU, Eskişehir Osmangazi Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

bilinmesinin faydası, bu iki kelimenin Kur'an'daki özel/kavramsal kullanımının daha iyi anlaşılmasına yarayacaktır. Araştırma, iki kelimenin Kur'an ve Sünnete benzer ve farklı kullanım şekillerinin izahı ile devam etmektedir. Bu işlem her iki kelimenin madde madde tümevarım yoluyla, lügat manaları tespit edilerek ve daha sonraki kullanımları dikkate alınarak yapılmıştır. Makale, araştırma sonunda elde edilen en önemli sonuçların özetlenmesiyle son bulmaktadır.

Anahtar Kelimeler: Kur'an, Hadis, Rahmet, Yağmur, Belağat, Delalet, Mutabakat, Tenasüb.

أولاً- توطئةٌ:

ما الفرقُ بين لفظي المطرِ والغيثِ في اللغة؟ وكيف استعملهما القرآنُ والحديث؟ وهل ثمَّةَ فرقٌ بين الاستعمالين أو أنّه ما من فرقٍ؟ وما السّريرة وراء اختيار المطرِ تارةً والغيثَ تارةً أخرى؟

أسئلةٌ سنحاول الإجابة عنها في هذه الدّراسة، وحتى نجيب عنها على نحوٍ مرضٍ مقنعٍ يجب أن نقف ابتداءً على قول المعاجم وغيرِ المعاجم في شأن هذين اللفظين، ومن ثَمَّ نلج قلب العمل، لنلاحقَ لغة اللفظين في القرآن والحديث، وننظرَ في المعاني التي جريا في سياقتها.

ولكن قبل أن نسلكَ ذلك السّبيل يحسنُ أن ننبّهَ على أمرٍ مهمٍّ، وهو أنّ (القولَ بدِلالة خاصّةٍ للكلمة القرآنية لا يعني تخطئة سائر الدّلالات المعجميّة، كما أنّ إيثار القرآن لصيغةٍ بعينها لا يعني تخطئة سواها من الصّيغ في فصحى العرب، بل يعني أنّنا نقدّر أنّ لهذا القرآن معجمَه الخاصّ، وبيانَه المعجزَ. فنقول: إنّ هذه الصّيغة أو الدّلالة قرآنيّة، ثمّ لا يُعترض علينا بأنّ العربية تعرف صيغاً ودِلالاتٍ أخرى للكلمة.)[1]

[1]- التّفسير البيانيّ، د.عائشة عبد الرّحمن، ج2،ص8. فرّق القرآن على سبيل المثال بين النّعمة والنّعيم، (فاطّرد مجيء (نعمة وأنعم ونعماء) في نعم الدّنيا، واطّرد كذلك مجيء (نعيم) خاصّاً بالآخرة.

ثانياً: المطرُ والغيث في كتب اللغة وغيرِها:

1- المطرُ:

جاء في العين: المَطَرُ: الاسمُ (وهو الماءُ المنسكِبُ من السّحابِ) والمَطْرُ: فِعلُهُ.... ومطَرَتْنا (السماء) تمْطُرُهم مَطَراً، وأَمطَرَتْهُمْ (السّماء) وهو أَقْبَحُهُما. وأَمطَرهم اللهُ مَطَراً أو عذاباً.)[1]

ولعلّ في قول الخليل: (وهو أقبحهما) دِلالةً على تفرقةٍ ما بين (مطرَ) و(أمطرَ)، (فمطرَ) لها عنده - فيما أرى- دِلالتان: دِلالةٌ على الخير، ودِلالةٌ على العذاب. يقوّي القولَ بدِلالة الخير تفسيرُ الخليل الغيثَ في موضع آخر من العين بلفظ المطر[2]، ويقوّي القولَ بدِلالة العذاب قولُه: (أقبحهما) فالقبح كائنٌ في (مطرَ) و(أمطرَ)، ولكنّه في الثّانية أقوى وأعلى، وأمّا (أمطر) فلا دِلالة لها عنده إلّا على العذاب، يدلّ على ذلك قوله بعدَها: (وأمطرهم الله مطراً أو عذاباً) وكأنّي بصاحب العين ينظر في القرآن، يتأمّلُ كيف استعمل (أمطرَ)؟ أو كأنّي به ينظر إلى قول ابن عُيينة: (ما سمّى الله في القرآن مطراً إلّا عذاباً.)[3]

وأمّا أبو عبيدةَ معمرُ بنُ المثنّى ففرّق بين (مَطِرَ) و(أمطر)، بأن جعل الأولى للرّحمة والثّانية للعذاب، إذ قال في تعليقه على قول الله تعالى: ((فَأَمْطِرْ

التّفسير البيانيّ، ج1، ص214. وانظر أيضاً الإعجاز البيانيّ للقرآن الدّكتور عائشة عبد الرّحمن ص 235-236.

[1]- العين، الخليل، ج7، ص425. وانظر: تهذيب اللّغة، الأزهريّ ج13، ص341-342. المحيط في اللغة، الصّاحب بن عباد، ج9، ص171. لسان العرب، ابن منظور (م ط ر). تاج العروس، الزّبيديّ (م ط ر).

[2] - العين، ج4، ص440. مستدرك الجزء الرّابع مطبوع في نهاية الجزء الثّامن.

[3] - البخاريّ، ج4، ص1704.

عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ)) الأنفال:32 : (مجازه أنّ كلّ شيءٍ من العذابِ فهو أمطرت بالألف، وإنْ كان من الرّحمة فهو مَطِرت.)[1]

ولكنّ ابن حجر العسقلانيّ تعقَّب كلامَ أبي عبيدةَ بقوله: (وفيه نظر)[2] وهذا تعقُّب من ابن حجرٍ صحيحٌ؛ إذ لا دليل لتلك التّفرقة غير استعمال القرآن (أمطر) في العذاب دون (مطر)، وهذا لا ينهض دليلاً؛ لأنّه استعمال خاصٌّ بالقرآن وليس من الصّواب - والحال كذلك- أن نمدّه إلى غيره، وأن نجعله حاكماً على اللغة كلّها.

وإلى هذا الدّليل القرآنيّ الذي ركن إليه أبو عبيدةَ استند الفيروزآبادي في قصر أفعل على العذاب يقول رحمه الله: (وأمْطَرَهُم اللّهُ: لا يُقالُ إلاّ في العَذابِ.)[3] وذهب إلى ذلك ابن منظورٍ[4] والزّبيديّ[5]. ولكنّ الرّاغب الأصفهاني كأنّه استضعف التفرقة بين (مَطَر) و(أمطَرَ) على نحو ما حكى أبو عبيدةَ؛ إذ صدّر هذه التفرقة بقوله: وقيل. يقول الرّاغب رحمه الله: (وقيل: إنّ (مَطَر) يقال في الخيرِ، (وأمطرَ) في العذابِ. قال تعالى: (**وَأَمْطَرْنا** عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ.) الشعراء: 173 (**وَأَمْطَرْنا** عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ.) الأعراف: 84 (**وَأَمْطَرْنا** عَلَيْهِمْ حِجارَةً.) الحجر:74 (**فَأَمْطِرْ** عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ.)الأنفال:32)[6]

---

[1]- مجاز القرآن، أبو عبيدة، ج1، ص245.

[2] - فتح الباري، ابن حجر، ج8، ص308.

[3]- القاموس المحيط، الفيروزآبادي (م ط ر). تاج العروس (م ط ر).

[4]- لسان العرب (م ط ر)

[5]- تاج العروس (م ط ر).

[6]- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص470، (م ط ر)

وذهب أناسٌ آخرون إلى عدم التّفرقة بينَ (مطر) و(أمطر)، وأنّهما بمعنى واحدٍ. يقول ابن منظورٍ: (وأناسٌ يقولون: مَطَرتِ السّماءُ، وأمطَرَتْ بمَعْنَى.)[1]

2- **الغيثُ:**

(الغَيْثُ: المطر[2]. [يقال]: غاثَهُمُ اللهُ، وأصابَهُمْ غَيْثٌ. والغَيْثُ: الكلأُ يَنْبُتُ من المطرِ، ويُجمع على الغُيُوث. والغِياثُ: ما أغَاثك اللهُ به.)[3] (وقيل إنّ الأَصْل: الْمَطَرُ، ثمَّ سمّيَ مَا ينْبتُ بِهِ غيثاً.)[4]

وواضح ممَّا ذكرته المعاجم أنّها ترادف بين لفظي الغيث والمطر، وأنّها لم تذكر فرقاً بينهما. ولكنَّ تأمُّل كلام هذه الكتب على المطر والغيث يفضي بنا إلى تفرقةٍ تقول: إنّ المطر أعمُّ من الغيث، إذ المطرُ يكون رحمةً، ويكون عذاباً، وأمّا الغيث فرحمةٌ خالصةٌ.

وإلى اختصاص الغيث بالرّحمة أشار الزّبيديّ بقوله: (وقيل: هو المَطَرُ الخَاصُّ بالخَيْرِ، الكَثِيرُ النَّافِعُ؛ لأَنّه يُغَاثُ به النّاسُ.)[5]

---

[1]- لسان العرب (غ ي ث). تاج العروس (غ ي ث)

[2]- العين، ج4، ص440. وانظر: تهذيب اللغة، ج8، ص177. المحيط في اللغة، الصّاحب بن عباد، ج5، ص120. الصّحاح تاج اللغة، الجوهري (غ ي ث). المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ح6، ص10. لسان العرب (غ ي ث). القاموس المحيط (غ ي ث). تاج العروس (غ ي ث).

[3]- العين،ج4، ص440. وانظر: تهذيب اللغة،ج8، ص177. المحيط في اللغة، ج5، ص120. الصّحاح تاج اللغة، (غ ي ث).

[4] - المحكم والمحيط الأعظم، ج6، ص10.

[5]- تاج العروس (غ ي ث).

ولكنْ لا بدّ من التذكير بأنّ معنى العذاب الذي لحظته المعاجمُ في المطر ليس من استعمال العرب، وإنّما هو استعمال قرآنيٌّ، خاصّ بالقرآن؛ فالمطر حين يُطلق عند العرب يتمحّض للدِّلالة على الخير والرّحمة.

وقد روت كتب اللغة والمعاجم خبراً ذا شأنٍ عن ذي الرُّمَّة حول المطرِ والغيثِ، ولكنّها لم تعلّق عليه، واكتفت بروايته عن راويه، ولو أنّها نظرت في هذا الخبر، ودقّقت في لغته لوقفت على تفرقةٍ مهمّةٍ تكشف عن حقيقة استعمال العرب لفظي الغيث والمطر. وذلك الخبر رواه الأصمعيّ، يقول رحمه الله: (أَخْبَرَني عيسى بنُ عمرَ الثّقفي وأَبو عَمرٍو ابنُ العَلاءِ، قال: سَمِعْتُ ذَا الرُّمَّةِ يقول: قاتل الله أَمَةً بِنِي فلانٍ ما أَفصَحَها! قلت: كيف كان **المَطَرُ** عِنْدَكُم؟ فقالت: **غِثْنا** ما شِئنا.)[1]

فالمرأة في هذا الخبر تؤثر لفظ الغيث على لفظ المطر الذي نطق به ذو الرُّمَّة، فيستحسنُ منها ذلك أشدّ الاستحسان، ولا معنى لذلك الاستحسان سوى أنّ المطر يفترق عندهما عن الغيث، وأنّ الغيث أولى بالإطلاق في مثل حالهما.

والذي يلوح لي أنّ قوم المرأة كانوا في مسيس الحاجة إلى ما يروي ظمأهم، ويطفئُ غُلَّتهم، فناسب هذه الحالَ أن يطلَق لفظُ الغيث لا لفظُ المطر. ولكنّ ذلك لا يعني البتة أنّه لا يصحّ إطلاق لفظ المطر في مثل حال المرأة وذي الرُّمَّة، وإنّما المعنى أنّ ذلك الإطلاقٌ مغسول من الفصاحة والبلاغة؛ لأنه لا يصوّر لنا مشاعر الناس وأحاسيسهم، ولا ينقل لنا تطلّهم الماء، ولا تلهّفهم لنزوله. وكيف يُتصوّر أنّه لا يصحّ إطلاق المطر، والعربُ

---

[1]- إصلاح المنطق، ابن السّكّيت، ج2، ص255. وانظر: تهذيب اللغة، ج3، ص240. المحكم، ج6، ص10. لسان العرب (غ ي ث) تاج العروس (غ ي ث)

تسمّي (المطرَ غيثاً)[1] كما عندَ ابنِ عيينةَ؟ بلَ إنَّ ذا الرُّمَّة ذاتَه ابتدأ كلامه مستعملاً المطر دالًّا على الغيث.

ولعلّه بقي لنا أن نلحظ قرب لفظة الغيث من الغوث، وكأنّ الأصل وَفْقا للدّكتور حسن جبل (الغيث الماء، ويزكّيه أنّه هو الحياة... فيمكن أن ندّعي أنّ الأصل في الاستغاثة طلب الماء حقيقة، ومن هذا نقلت إلى طلب الرفق والرحمة، وهما مناسبان للماء؛ فكلاهما رقّة كما أنّ كليهما إبقاء على المستغيث ونجدةٌ له. وربّما يؤيّد هذا بقوله تعالى: ((وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)) الكهف:29. هم يطلبون ماءً، فيؤتون بماء، لكنّه كالمهل.)[2]

ثالثاً: المطرُ والغيثُ في القرآن الكريم:

1- المطرُ في القرآن:

ورد لفظ المطر في القرآن في تسع آياتٍ، سبعٌ منها كان مطرها(مطرَ حجارةٍ سواءٌ أكان تصريحاً أم فُهِم من السّياق)[3] وهذه هي الآيات:

((**وَأَمْطَرْنَا** عَلَيْهِم **مَّطَرًا** فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)) الأعراف:84.

((وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً** مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) الأنفال: 32.

((فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً** مِّن سِجِّيلٍ)) الحجر: 74.

---

[1]- البخاريّ، ج4، ص1704.

[2]- المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمّد حسن جبل، ص1557.

[3]- القرآن والحديث، مقارنةٌ أسلوبيّة، د. إبراهيم عوض، ص206.

((وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي **أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا)) الفرقان: 40.

((**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**)) الشعراء: 173.

((**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**)) النمل: 58.

وثنتان منها كان المطر فيهما (بمعناه العادي)[1]، وهما:

((... وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ **أَذًى مِّن مَّطَرٍ** أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)) النساء: 102.

((فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا **هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)) الأحقاف: 24.

ولعلّ ابنَ عيينةَ أوّلُ من تأمّل أسلوب آيات المطر، وأرجع نظره في بنيانها، فخرج على الناس بقولٍ شاع فيهم، قال فيه: (ما سمّى اللهُ مطراً في القرآن إلّا عذاباً، وتسمّيه العرب الغيثَ كما قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا)[2] الشورى:28. ولكن تُعُقِّبَ ذلك القولُ (بورود المطر بمعنى الغيث في القرآن في قوله تعالى: (إنْ كانَ بكم أذى من مطرٍ) النساء: 102 فالمراد به هنا الغيث قطعاً. ومعنى التأذّي به: البللُ الحاصل منه للثوب والرّجل، وغيرُ ذلك.)[3]

---

[1]- القرآن والحديث، مقارنةٌ أسلوبيّة، ص207.

[2]- البخاريّ، ج4، ص1704. وقد أحسن ابن عيينةَ في قوله هذا غاية الإحسان؛ إذ لم يعمّم صنيع القرآن على لغة العرب، ونبّه على أنّ للمطر في لغة العرب معنىً مختلفاً عمّا جاء في القرآن. وهذا الذي لحظه ابن عيينة ما كان ليهتدي إليه لولا أنّه استقرى أسلوب القرآن وغير القرآن، وقارن بينهما، ثم خَلَصَ من ذلك إلى أنّ المطر في القرآن عذاب وأذى، وفي غير القرآن خير ورحمة.

[3]- فتح الباري، ابن حجر، ج8، ص308. وانظر: عمدة القاري، العينيّ، ج18، ص248. والإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ج2، ص164.

وتَعَقَّبَ القسطلانيُّ ذلك التّعقيب، وانتصر لقول ابن عيينة. يقول رحمه الله: (فإنّ المراد به المطرُ قطعًا، ونسبة الأذى إليه بالبلل والوحل الحاصل منه لا يخرجه عن كونه مطراً، وتسمّيه العربُ الغيث، وهو قوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا)) وثبت قولُه: وهو الذي في الفرع، وسقطَ من أصله.)[1]

وقد أصاب القسطلانيُّ في ردّه ذلك التّعقيب على الرّغم من أنّ مطرَ هذه الآية - كما قال المتعقّبون - مطرُ غيثٍ لا مطرُ عذابٍ وإهلاكٍ؛ وذلك لأنّ الناحية التي كان القرآن ينظر من خلالها ليست غيثَ النّاس أو إهلاكهم، وإنّما ما نزلَ بالمقاتلين من أذى المطر، (وإن كان يسيراً)[2] فناسب ذلك أن يُؤتى بلفظ يناسب هذه الحال.

ولكن هل تصويب ردّ القسطلانيّ على ابن حجرٍ معناه صحّةُ قول ابن عيينةَ؟ والجواب عن ذلك: لا.

فالذي يظهرُ لي أنّ ما يعكّر قول ابن عيينةَ ليس آيةَ النّساء التي تُعقِّب بها، وإنّما آيةُ الأحقاف ((فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ))

ولا يردُّ هذا الذي أذهب إليه أن يقال: إنّ لفظ المطر في آية الأحقاف واردٌ في سياق العذاب؛ وذلك لأنّ الزاوية التي يجب أن ننظر من خلالها إلى استعمال لفظ المطر في هذه الآية ليس ما آل إليه حالُ الكفّار مع العارض الذي رأوه، وإنّما كيف نظروا إليه لحظةَ ظهورِه لهم؟ إذ استبشروا به خيراً، ورأوا فيه الرزقَ والنعيم.

---

[1]- إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاريّ، القسطلانيّ، ج7، ص135.

[2]- نظم الدّرر، برهان الدّين البِقاعيّ، ج5، ص383.

وقد رأيتُ الإمام الطبريُّ رحمه الله يفسّر المطرَ في آية الأحقاف بالغيث. يقول رحمه الله: ((قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)) ظنّاً منهم برؤيتهم إيّاه أنّ غيثاً قد أتاهم يَحيَون به.)[1]

وما يؤكّد صحّةَ هذا التّفسير النظرُ فيما أعقبَ قولَهم، في قوله تعالى:(بل هو ما استعجلتم به...)، فقد أضربَ القرآن عن قولهم، وجاء بكلامٍ مستأنَفٍ كشفَ لهم فيه عن أنّ ما توهّموه خيراً ليس غيرَ العذابِ الذي كانوا يستعجلون به الرَّسولَ متهكّمين ومستبعِدين.

ثُمّ تأمل معي كيف ترتقي دِلالة المطر على الخير والرّحمة في هذه الآية بالبيان صُعُداً؛ فهي ترينا العذاب نازلاً بالقوم، وهم مقبلون على الحياة، وراغبون فيها؛ ذلك أنّهم استبشرَوا بالعارض خيراً، وفرحوا به، وما هي إلا سويعةٌ حتى تبدّلت حالُهم على نحوٍ صادمٍ مخيفٍ، فإذا الفرح خوفٌ مطبقٌ، وموتٌ محدِقٌ، وإذا الخير شرّ يرميهم موتاً، فأصبحوا في ديارهم كأن لم يكونوا، وذلك مآلٌ بشع كريه ليس كمثله عندَ السّامع أن ينزلَ العذابُ من غير الإشارةِ إلى الاستغراق في الحياة والذوبان فيها.

أضف إلى كلّ ما سبق أنّ ما أهلك الكفار في آية الأحقاف لم يكنِ المطرَ، وإنّما الريح التي فيها عذابٌ أليمٌ، وإذا كان الأمر على هذا النحو فكيف يصحُّ أن يوصف المطرُ في آية الأحقاف بوصفٍ لم يكن آلةً في وجوده، ولا سبباً في وقوعه؟

وعلى ذلك نستطيع أن نقول: إنّ استعمال القرآن لفظ المطر دالًّا على العذاب والأذى استعمال غالبٌ، وليس بمطّردٍ.

---

[1] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبريّ، ج21، ص155.

ولكن قد يقال: لِم آثر القرآن في آية الأحقاف لفظ الغيث على لفظ المطر مع أنّ لفظ الغيث متمحِّضٌ للدّلالة على معاني الخير والرّحمة؟ والجواب عن ذلك أنّ لفظ الغيث في القرآن والحديث - كما سيأتي- لا يُؤتى به إلّا في حال اضطرار النّاس إليه، وشديد حاجتهم له، ولا اضطرارَ ولا احتياجَ في آية الأحقاف.

وأمّا لماذا كثر استعمالُ المطرِ مع العذاب في القرآن؟ فالذي يظهر لي أنّ ذلك مرجعُه إلى أنّ في المطر (انسكاباً أو انحداراً بقوةٍ أو سرعةً مع استرسالٍ)[1]؛ (فالطَّيرُ تَهْوِي في السّماء مُطَّراً يعني: مسرعةً. وجاءتِ الخَيلُ مُتَمَطِّرةً، [أي: مسرعةً] يَسبِقُ بعضُها بعضاً..)[2] وهذا الانسكاب بقوةٍ، وذاك النزول بسرعة ممّا يناسب العذاب، ويتّسق معه.

وبناءً على ذلك تكون كلُّ الآيات التي جاء فيها المطر دالًّا على العذاب ناظرةً إلى معنى الانسكاب وصفتِه، وأمّا آيةُ الأحقاف فناظرةٌ إلى شيءٍ آخرَ، إلى معنى الخير الناشئِ عن أثر المطر في الأرض.

وتأمّل معي في ضوء تلك السّريرة التي كانت وراء استعمال القرآنِ المطرَ في العذاب ذلك المشهدَ الرهيبَ الذي يرسمه إمطارُ الكفّار بحجارة لا عدّ لها ولا حصرَ، فهي كقَطْر المطر في الكثرة تهوي على أجسادهم بقوةٍ شديدةٍ وسرعةٍ كبيرةٍ، فتنزعُ أرواحَهم، وتجعلُهم كأن لم يغنَوا بالأمسِ، وتدمّر كلّ شيءٍ تدميراً، فلا منجى، ولا ملاذ،؛ إذ مطر الحجارة سيعمّ، ويطمّ، ويصيب كلّ مكانٍ.

---

[1]- المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، ص2092.

[2]- العين، ج7، ص426. تهذيب اللغة، ج13، ص342.

2- الغيثُ في القرآن:

وردَ لفظ الغيث في القرآن الكريم في أربع آياتٍ، جاء في ثلاث منها اسماً، وفي الرابعة فعلاً مبنيّاً لغير فاعله، وفي كلٍّ جاء دالًّا على معنى الرّحمة، وحاملاً له، ومبشّراً به. وهذه هي آيات هذا اللفظ:

((إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ **وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) لقمان: 34.

((وَهُوَ الَّذِي **يُنَزِّلُ الْغَيْثَ** مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ))الشورى: 28.

((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ **غَيْثٍ** أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)) الحديد: 20.

((يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ **يُغَاثُ** النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)) يوسف: 49.

وواضحٌ لمن يتأمّل هذه الآيات أنّ معنى الرحمة في الغيث ظاهرٌ ظهوراً لا خفاءَ فيه في آيات الشورى ويوسُفَ والحديدِ، ففي آية الشورى نجدُ قوله تعالى: (وينشر رحمته.) والغيثُ من الرّحمة، وكذلك نجد قولَه تعالى: (من بعد ما قنطوا) وهو قول يدلّ على عِظَم هذه الرّحمة، وأنّ النّفوس اشتاقت إليها، وطال انتظارها لها حتى أَيِسَتْ من بلوغها، وفي آية يوسفَ يقحطُ المطرُ سبعَ سنين، ثم يُغاث النّاسُ، من بعد طول انتظارٍ وشديد قحطٍ، وفي آية الحديد نلقى آثار رحمة الغيث ماثلةً في إنبات النبات، وأثره في نموه وتكاثره وهَيَاجِه،

فقد مثّلتِ الآية لفناء الدّنيا وذهوب نعيمها بعد عظيم إقبالها على أهلها بزرع يزرعُه الزُّرَّاع، فيسيقه الحيا، فينبتُ، فيهيجُ، فيصفرُّ، فيكونُ حُطاماً.

وأمّا آية لقمان فمعنى الرّحمة وتطلُّب النّفوسِ والأجساد له ليس بواضح ذلك الوضوح، فإذا ما أعملنا العقل، وأدمنا التّأمّل طلباً لهذا الذي خفي وراء ظاهر الكلام فإنّا نجد أنّ الباعثَ على استخدام لفظِ الغيث في آية لقمان أنّها تكلمت على مفاتح الغيب الخمسة.

فعن سالم بْنِ عبد اللَّه عن أبيه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ **الْغَيْثَ** وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1]

ولا يعظُم أمرُ الغيب في نفسٍ قَدْرعِظَمه عند من يتطلّب الغيث، ويتلهّف لنزوله من بعد طول جدبٍ وشديد قحطٍ؛ إذ يطيل التفكير في شأنه، ويتشوق لعرفان زمن وقوعه، متى يأتي؟ وهل سيأتي أو لن يأتي. وتلك أحوال لا يناسبها غيرُ لفظ الغيث.

ويلوح لي باعثٌ آخرُ وراء إيثار الغيث على المطر في آية لقمان، وهو مناسبةُ المطلع للخاتمة (فلقمانُ في صدرها: ((**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا** فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ))، وفي آخرها: ((**وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ** مَا فِي الْأَرْحَامِ))[2] فإنزال الماء من السماء يناسبه لفظُ الغيثِ لا لفظ المطرِ؛ وذلك لدِلالة الغيث وإنزال الماء في استعمال القرآن على معاني الرّحمة والخير، بل

---

[1]- البخاري، ج4، ص1693، رقْمُ4351.

[2]- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، السّيوطيّ، ص59.

لاطِّرادهما في الدّلالة على هذه المعاني. وهذه آيات إنزال الماء من السّماء تبيْنُ عن ذلك الاطِّراد:

((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)) البقرة: 22.

((وَهُوَ الَّذِي **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) الأنعام:99.

((إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً** لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)) الأنفال: 11.

((**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)) الرعد: 17.

((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)) إبراهيم: 32.

((وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)) الحجر: 22.

((هُوَ الَّذِي **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)) النحل: 10.

((وَاللَّهُ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)) النحل: 65.

((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)) طه:53.

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ))الحج: 63.

((**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)) المؤمنون: 18.

((وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** طَهُورًا)) الفرقان:48.

((أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)) النمل: 60.

((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن **نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) العنكبوت: 63.

((وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) الروم: 24.

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)) فاطر:27.

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ** ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)) الزمر:21.

((وَالَّذِي **نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً** مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)) الزخرف:11.

((**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ** وَحَبَّ الْحَصِيدِ)) ق: 9.

ولو أنّ القرآن أتى بلفظ المطر في الخاتمة بدلاً من الغيث لَمَا كان ذلك مناسباً للمطلع؛ إذ هيئة السّورة ستكون عندئذٍ مبتدئةً بلفظٍ اطّرد استعماله في الخير، ومنتهيةً بلفظٍ غَلَبَ استعمالُه في ضدِّ الخير؛ فالمطر في القرآن- كما ظهر- جاء دالًّا في الغالب على العذاب، ولم يُستعمل في الخير إلّا في آية الأحقاف.

رابعاً: المطرُ والغيثُ في الحديث النّبويّ الشّريف:

إذا كانَ معنى العذاب غلبَ على لفظ المطرِ في القرآن فإنّ الحديث النّبويّ جرى في استعماله مجرى مغايراً؛ فقد استعمله في الخير مرّات عديدة. من ذلك:

عن زيد بن خالد الجهنيّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَالَ: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: **مُطِرْنَا بِفَضْلِ** اللَّهِ

وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: **مُطِرْنَا** بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[1]

وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ **المَطَرِ** لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ.)[2]

وعن أبي هريرة أنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ السَّنَةَ لَيْسَ بِأَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا **مَطَرٌ**، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطِرَ **السَّمَاءُ**، وَلَا تُنْبِتَ الْأَرْضُ.)[3]

فالمطر في الحديث الأوّل دالّ على الخير دِلالةً واضحةً، يبيّن ذلك تقييد النّبي صلّى الله عليه وسلّم الفعلَ (مُطرنا) بقوله: (بفضل الله ورحمته.)

وفي الحديث الثّاني يُمثّل النّبي صلّى الله عليه وسلّم لعِظَم الخير في أمّته أوّلها وآخرها بعِظَم خير المطر أوّله وآخره. ولكن لا بدّ من التنبيه هنا على أنّه لا يصحّ أن يُفهم من تّمثيل النّبي صلّى الله عليه وسلّم (التّردد في فضل الأول على الآخر، فإنّ القرن الأول هم المفضلون على سائر القرون... وإنّما المراد منه نفعهم في بثّ الشّريعة والذبّ عن الحقيقة.)[4] أو لعلّ التّمثيل مبنيٌّ (على التّقريب لهم من صحابته.)[5]

وفي الحديث الثّالث يبيّن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للنّاس المعنى الدّقيق للقحط؛ فليس القحط ألّا ينزل المطر، وإنّما القحط أن ينزل المطر،

---

[1]- البخاريّ، ج1، ص290، رقْمُ 810. مسلم، ج1، ص83-84، رقْم71.

[2]- سنن التّرمذي، ج3، ص147، رقم 2869. مسند أحمدَ، ج19، ص334، رقْم 12327.

[3]- مسند أحمد، ج14، ص202، رقْم8511. قال الشيخ شعيب في الحاشية: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[4]- الكاشف عن حقائق السّنن، الطّيبيّ، ج12، ص3968.

[5]- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص181.

ثم لا يكون من بعد ذلك الخير الذي يرجوه الناس، والمرادُ من هذا الحديث: (نسبة الأشياء إلى خالقها وموجدها المنعم بها، فهو المعطي والمانع والخالق والرّازق، فالكلّ منه وإليه، فليس للمطر عمل في الإنبات، إنّما الإنبات بأمر الله، تُمْطِر ولا تُنْبِتُ، وتنبت ولا تمطر.)[1]

وثمّة أحاديثُ كثيرةٌ استعملت لفظ المطر دالًّا على الخير وسبباً له، ولكنّ لفظه ليس من لفظ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما من لفظ الرّاوي عنه كمثل هذا الحديث:

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَتْ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: " يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا.)[2]

وهذه الأحاديث الكثيرة - وإن لم تكن ميداناً للدّراسة - تدلّ على كثرة استعمال لفظ المطر في الكلام البشريّ دالًّا على الخير وصانعاً له.

ولم يستعمل لفظ المطر - فيما أعلم- في حديث النّبيّ مسبّباً لشيءٍ من الأذى إلّا في حديثٍ واحدٍ:

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (خَرَجَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ، فَأَصَابَهُمْ الْمَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ

---

[1]- الشافي في شرح مسند الشافعي، ابن الأثير، ج2، ص358.

[2]- البخاريّ، ج3، ص1172، رقم4551.

عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ- قَالَ- فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ. فَقَالَ: أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ....)[1]

فالمطر قد أصاب ذلك النفرَ الكريم بالبلل الشّديد، واضطرهم لدخول الغار، فانحطّت الصخرة عليهم، ولاحظِ استعمال النّبي للفعل (أصاب) الذي يدلّ على نوعٍ من الأذى نزل بأولئك الرجال؛ إذ يصوّر فعلُ الإصابة ما نزل من مطر عليهم بسهام آذتهم أشدّ الإيذاء؛ وذلك بالنّظر إلى ما أصابهم من بللِ المطر، ثم ما آل إليه حالُهم من ضيقٍ وكربٍ شديدين بعد اللجوء إلى الغار.

وهذا الفعل (أصاب) (جاء في الخير والشّرّ قال تعالى: ((إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ...)) التوبة:50 ((وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ)) النساء: 73. فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)) النور:43....)) قال بعضهم: الإصابة في الخير اعتباراً بالصّوب، أي بالمطر، وفي الشّرّ اعتباراً بإصابة السّهم.)[2]

ولا يعكّر هذه الدّلالة التي تتسق مع معنى الأذى، وتدلّ عليه ورودُ روايةٍ أخرى، وهي (أخذهم المطر)[3]؛ إذ في الفعل (أخذهم) معنى الإحاطةِ بهم، والاستمكانِ منهم. ولذا اضطرهم المطرُ إلى أن يلجؤوا إلى الغار طلباً للسلامة والأمان، ولمّا آووا إليه نزل بهم ما هو أشدّ؛ إذ انسدّ فم الغار كما يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في رواية الأخذ: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ **أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ**، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ

---

[1] - البخاري، ج2، ص771، رقمُ 2102.

[2] - المفردات في غريب القرآن، ص288، (ص و ب)

[3] - البخاري، ج2، ص821، رقم 2208. مسلم، ج4، ص2099، رقم 2743.

عَلَيْهِمْ...)[1] والتعبير بالفم تعبيرٌ استعاريٌّ دقيقٌ جعل به النّبيّ الغارَ كائناً يلتهم الطعام، ويصيّره كأن لم يكن، في دِلالةٍ على نزول الهلاك التّامّ بأولئك النفر.

وليس من شكٍّ في أنّ الأذى الذي في الحديث من جنس الأذى الذي في قول الله تعالى: ((وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى)) فالنّبي صلّى الله عليه وسلّم هاهنا جرى في اختياره مجرى القرآن في استعمال المطر مع الأذى، وكذلك سار على دربه في النظر إلى معنيي الانسكاب بقوةٍ والنزول بسرعة اللذين كان القرآن ينظر إليهما، وهو يعبّرُ بلفظة المطر.

وأمّا الغيثُ فجرى الحديث النّبويّ في استعماله على طريقة القرآن في حصوله من بعد قنوط النّاس وطول انتظارهم له، وكذلك في دلالته على الخير والفعل له.

فعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ: ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا.)[2]

وعن أَبِي موسى، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ،

---

[1]- البخاري، ج2، ص821، رقم 2208. مسلم، ج4، ص2099، رقم 2743.

[2]- البخاري، ج1، ص344، رقم 986.

وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ.)[1]

ففي الحديث الأوّل يندفع الرّجل إلى مقاطعة النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم- وهو يخطب طالباً منه أن يستسقيَ الله لهم، وفي الحديث الثّاني يمثّل النّبي صلّى الله عليه وسلّم لمن قَبِل برسالته، ومن كَفَر بها بالأرض الطيّبةِ المعدنِ والأرضِ العقيمِ، فالأرض الطيّبة قبِلتِ الغيثَ، فنبت فيها الخير والعشب والكلأ الكثير، والأرضُ العقيم لا خير فيها، لم تمسك ماءً، ولم تنبت خيراً.

وإذا ما رحنا نتأمل استعمال النّبي صلّى الله عليه وسلّم ألفاظَ المطر والغيث في أحاديثه الشريفة فذلك يثير في وجهنا سؤالاً مهمّاً، وهو: لماذا آثر النّبي صلّى الله عليه وسلّم في الحديثين الأخيرين لفظَ الغيث على المطر؟ ولماذا آثر المطرَ على الغيث في الأحاديث التي سبقت هذين الحديثين: (**مُطرنا** بفضل الله ورحمته) و(مثل أمّتي مثل **المطر**) و (إنّ السَّنة ليس بأن لا يكونَ فيها **مَطَرٌ**)؟

والجواب عن هذا السؤال هو أنّ لفظ الغيث يأتي في استعمال النّبي صلّى الله عليه وسلّم حيثُ تكون الحاجة للغيث ماسّةً، فيتطلّبه الناس ويرجُون نزولَه، فذلك هو ما دعا النّبي صلّى الله عليه وسلّم لإيثار لفظ الغيث على المطر في الحديث الأوّل، بل هو الداعي لاستعمال الفعل (يغثنا) من قِبَلِ الرّجل الذي طلب دعاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فهو ما قاطع النّبيّ، وما اندفع ذلك الاندفاع إلّا لشديد الحاجة إلى ما يغيث؛ فقد هلكت الأموال، وانقطعتِ السُّبل، وذلك أيضاً هو الدّاعي إلى اختيار الغيث في حديث: (مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلمِ كمثل الغيثِ الكثير.)

---

[1]- البخاريّ،ج1، ص42، رقم 79. مسلم،ج4، ص1787- 1788، رقْمُ 2282.

يقول الإمام الطّيبيّ رحمه الله تعالى معلّلاً اختيار الغيث في هذا الحديث: (والغيثُ: المطر. وإنّما اختير الغيثُ على سائر أسماء المطر ليُؤذِنَ باضطرار الخلق إليه حينئذٍ، قال الله تعالى: ((هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا)) وقد كان النّاس في الزّمان الأول قبل المبعث، وهم على فترةٍ من الرسل، وقد امتحنوا بموت القلب ونضوب العلم، حتى أصابهم الله برحمةٍ من عنده، فأفاض عليهم سجال الوحي السماوي، فأشبهت حالُهم حالَ من توالت عليهم السّنون، وأخلفتهم المحامل، حتى تداركهم الله بلطفه، وأرخت عليهم السماء، غير أنّه كان حظ كلّ فريق من تلك الرحمة على ما ذكره من الأمثلة والنظائر، وإنّما ضرب المثل بالغيث للمشابهة التي بينه وبين العلم، فإنّ الغيثَ يحيي البلد الميّت، والعلمُ يحيي القلبَ الميّت.)[1]

وأمّا الأحاديث التي استُعمل فيها المطر دالًّا على الخير والنّعمة فلم يكن فيها اضطرار من الخلق إليه حتى يؤتى بلفظ الغيث؛ إذ دار موضوعها حول معنى الخير، وكيف يكون؟

ففي الحديث الأول مثّل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لِعظَم خيرِ الأمّة في أوّل أيّام الإسلام وفي آخر الزمان، وفي الحديث الثّاني دار الكلام النّبويّ حول الصّانع للمطر، فأرجعَ المؤمنون الإمطارَ إلى فضل الله ورحمته، وأرجع الكفار ذلك إلى غير الله، وفي الحديث الثّالث تبيينٌ للنّاس أنّ خير المطر ليس بكائنٍ في نزوله، (خلافًا للعرب فيما كانوا يذهبون إليه من نسبة النّبات والخصب إلى المطر.)[2] وإنّما كائن في تفضّل الله على عباده ومنّه عليهم. فناسب كلَّ هذه الأحوالِ أن يُؤتى بلفظ المطر، وليس بلفظ الغيث.

---

[1]- الكاشف عن حقائق السّنن، ج2، ص616.

[2]- الشافي في شرح مسند الشافعي، ج2، ص358.

خامساً: خاتمة:

ونخلص من كلّ ما مضى درسُه في هذا البحث إلى خمس نتائجَ، وهذه النتائجُ هي ما يلي:

1- كشفتِ الدّراسة عن أنّ معنى العذاب الذي لحظته المعاجمُ في المطر ليس من استعمال العرب، وإنّما هو استعمالٌ خاصٌّ بالقرآن؛ فالمطر حين يُطلَق عند العرب يتمحّض للدِّلالة على الخير والرّحمة.

2- وجدتِ الدّراسة أنّ العرب قد تطلِق لفظ المطر، وهي تريد الغيثَ، لكنّ هذا الإطلاق لا بلاغة فيه، ولا براعةَ؛ لأنّه لا يستطيع أن يصوِّر لنا -كما يصوّر الغيث - مشاعرَ النّاس وأحاسيسهم، ولا ينقل لنا تطلّبهم الماءَ، ولا تلهّفهم لنزوله.

3- كشفتِ الدّراسة عن أنّ استعمال القرآن المطر في العذاب استعمال غالب وليس بمطّردٍ؛ فالمطر في آية الأحقاف (قالوا: هذا عارض ممطرنا) مستعملٌ في معنى الخير؛ لأنّ الزاوية التي يجب أن ننظر من خلالها إلى استعمال لفظ المطر في هذه الآية ليس ما آل إليه حالُ الكفّار مع العارض الذي رأوه، وإنّما كيف نظروا إليه لحظة ظهوره لهم؟ وكذلك علّلتِ الدّراسةُ استعمال القرآن المطرَ في العذاب، فأرجعتْه إلى ما في لفظ المطر من دِلالةٍ على الانسكاب بقوةٍ أو الانحدار بسرعةٍ، وهذا وذاك مما يناسب العذاب، ويتّسق معه. وأمّا الغيث وإنزال الماء من السّماء فوجدتِ الدراسة أنّهما لم يستعملا في القرآن لغير الدّلالة على الرّحمة والخير والنّعمة.

4- ظهر للدّارسة أنّ الحديث النّبوي جرى في استعمال لفظ المطر مجرى مغايراً للقرآن؛ إذ غلب عليه معنى الخير، ولم يُستعمل سبباً للأذى إلّا

في حديثٍ واحدٍ، وظهر لها أنّ القرآن والحديث لم يأتيا بلفظ الغيث إلّا في حال اضطرار النّاس إليه وشديد حاجتهم له.

5- بيّنتِ الدّراسة من خلال التّحليل البلاغي الأسلوبيّ مطابقةَ المقال لما يقتضيه الحالُ في استعمال القرآن والحديث لفظي المطر والغيث؛ فلا عدولَ عن لفظٍ إلى آخرَ إلا لداعٍ معنويٍّ يدعو إلى ذلك العدول.

المصادر:

1- **القرآن الكريم**

2- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيوطيّ، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة العامّة للكتاب، 1974م.

3- إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاريّ، أحمد بن محمّد القسطلانيّ، المطبعة الأميريّة، بولاق، مصر، ط6، 1305.

4- إصلاح المنطق، يعقوب بن السّكّيت، تح: أحمد محمد شاكر، وعبد السّلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط4.

5- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، الدّكتور عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة ط3.

6- تاج العروس، مرتضى الزّبيديّ، مجموعة من المحقّقين، سلسلة التّراث العربيّ، الكويت.

7- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبةَ الدّينوري، المكتب الإسلاميّ، مؤسّسة الإشراق، ط2، 1419هـ - 1999م.

8- التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف، القاهرة، ط7.

9- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهريّ، تح: عبد السّلام هارون، وزملاؤه، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة.

10- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبريّ، تحقيق: الدّكتور عبد المحسن التّركي، دار هجر، السّعودية، ط1، 1422هـ، 2001م.

11- الجامع الصّحيح، محمّد بن إسماعيل البخاريّ، تح: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987.

12- الشّافي في شرح مسند الشّافعي، مجد الدّين بن الأثير، تح: أحمد بن سليمان، يَاسر بن إبراهيم، مكتبة الرُّشْد، الرياض، السّعودية، ط1، 1426 هـ- 2005م

13- الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهريّ، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407 هـ- 1987.

14- صحيح سنن التّرمذي، محمّد بن عيسى التّرمذي، حكم على أحاديثه محمد ناصر الدّين الألبانيّ، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 2000م.

15- صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج، تح: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

16- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدّين العينيّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

17- العين، الخليل بن أحمد، تح: د. مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائيّ، د. ط، د.ت.

18- فتح الباريّ شرح صحيح البخاريّ، ابن حجر العسقلاني، تصحيح محبّ الدّين الخطيب، وعليه تعليقات ابن باز، خرّج أحاديثه محمّد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

19- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادى، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرّسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرّسالة، بيروت.

20- القرآن والحديث، مقارنة أسلوبيّة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2000م.

21- الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدّين الطيبيّ، نشر عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط1، 1997.

22- لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، وزميلاه، دار المعارف، القاهرة.

23- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تح: فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

24- المحكم والمحيط الأعظم، علي بن سيده، تح: عبد الستار فرّاج وآخرون، معهد المخطوطات، ط1، 1972.

25- المحيط في اللغة، الصّاحب بن عبّاد، تح: محمّد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ - 1994 م.

26- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع - بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها، جلال الدين السيوطي، قرأه وتمّمه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط1، 1426 هـ

27- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، مؤسّسة الرسالة، ط1، 2001م.

28- المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، الدكتور محمّد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011.

29- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمّد، المشهور بالرّاغب الأصفهانيّ، تح: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

30- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، برهان الدّين البقاعيّ، المكتب الإسلاميّ، القاهرة، د. ط، د.ت.